الفلسفة الاغريقية في القرن الثالث قبل الميلاد

الأصالة والاشكاليات

الأستاذ المساعد

مها عيسى العبدالله

جامعة البصرة /كلية الآداب

الملخص:-

تحاول هذه الدراسة مناقشة مشكلة الأصالة في الفلسفة الإغريقية في القرن الثالث قبل الميلاد . وتسعى من خلال ذلك إلى إعطاء فكرة عن عوامل انحطاط الفلسفة الإغريقية في المراحل المتأخرة من حياة المجتمع الإغريقي .

وتأمل هذه الدراسة أن تسلط مزيداً من الضوء على مشكلة أصالة الفلسفة الإغريقية في الفترة المذكورة أعلاه . وقد كشفت هذه الدراسة أن الفلسفة الإغريقية في هذه الحقبة من تاريخها كانت لها أصالتها الخاصة بها .

Greek philosophy in the third century BC Originality and problems

Prof. Maha Essa Abdullah
College of of Arts - University of Basrah

Abstract:

The Originality and the problematiques of the Greek philosophy in the third century

The present study is an attempt to discuss the main problems of Greek philosophy , focusing on the problem of the originality ,to get an idea about the factors of the decline of philosophy in the late stages of Greek society B. C .

The study hopes to highlight the problem of originality of Greek philosophy , in the period mentioned above the study revealed that this period had its own originality

المقدمة :-

لا يخلو تناول الفلسفة اليونانية في القرن الثالث (ق.م) من شيء من المجازفة ، لفقدان نصوص فلاسفتها ولاختلاف رؤى المفكرين والفلاسفة حولها بين من يرى فيها فلسفة أصيلة وبين من يرى أنها مجرد تكرار للموروث الفلسفي السابق .

وهناك صعوبة أخرى تكمن في صعوبة الإلمام الواسع والدقيق بتفاصيل الموروث الفلسفي ، الذي سبق الفلسفة اليونانية في القرن الثالث (ق.م) ، الذي بدونه يصبح الحديث عن الابداع أو التقليد أمراً صعباً ، دون الاطلاع على تلك الآراء وتأملها تأملا جيداً .

إلا إننا مع وعينا بهذه الصعوبات آثرنا أن نخطو خطوة في محاولة لجلاء هذه المشكلة والاسهام في توضيحها ، فوجدنا من المناسب ونحن نواجه هذه المشكلات أن نركز على ثلاث مسائل وهي :

أولاً : التعريف بالفلسفة في القرن الثالث ق.م .

ثانياً : إظهار الموقف من الفلسفة في القرن الثالث ق.م .

ثالثاً : عرض نماذج مختارة عن الفلسفة في القرن الثالث ق.م .

أولاً : التعريف بالفلسفة في القرن الثالث ق.م .

لقد شغل التفكير الفلسفي في القرن الثالث ق .م وما تلاه من قرون المهتمين بالفلسفة اليونانية ، وبصورة خاصة الفلسفة في أثينا الحاضرة الثقافية التي كانت مركز إشعاع وجذب للعالم اليوناني الواسع ، والتي أبرزت أهم الفلاسفة وأعظمهم في بلاد اليونان وهم : سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس .ونظراً لما لهذه المدينة من مكانة خاصة بكونها موطن هؤلاء الفلاسفة العظام ، وتراثهم الفلسفي الذي لا يزال تأثيره العظيم الشغل الشاغل للمهتمين بالفلسفة عامة والفلسفة الإغريقية خاصة . من المفيد أن أتوقف قليلا عند أثينا لأسلط الضوء على البيئة الثقافية التي نشأت

بها فلسفاتهم قبل أن يحل بأثينا ما حل ببقية مدن العالم اليوناني من دمار وفوضى وتفكك جلبه عليها الاسكندر المقدوني أولاً في حياته ثم بعد موته . لذا نرى أن الحديث عن الفلسفة في القرن الثالث ق.م هو حديث عن مرحلة ما بعد انهيار أثينا سياسياً وفلسفياً، كما سنوضح ذلك لاحقاً .

لقد توقفت عند آراء بعض الفلاسفة المهمين الذين قدموا لنا تاريخاً عاماً للفلسفة ، وكان للفلسفة اليونانية حضورها المميز ضمن ذلك التاريخ ، وأعني هنا حصراً مؤرخي الفلسفة اليونانية البارزين الفيلسوف برتراند رسل والفيلسوف إميل برهييه لقد كان توقفي عند رؤيتهما لأثينا قبل الاسكندر المقدوني رغم وجود فلاسفة آخرين أيضاً تناولوا تاريخ الفلسفة وبصورة خاصة الفلسفة اليونانية التي يعنيني أمرها ومن هؤلاء الفلاسفة الفيلسوف هيجل ونيتشه وغيرهما . لأسباب منها أولاً لأن لكل منهما رؤية فلسفية خاصة تميزه عن الآخر وهو أمر مهم في هذه الدراسة . وثانياً لتوفر المصادر التي تناولا بها الفلسفة اليونانية ، وأعني هنا حكمة الغرب الجزء الأول وتاريخ الفلسفة الغربية الجزء الثالث بالنسبة لرسل . وتاريخ الفلسفة الجزء الأول والثاني بالنسبة إلى برهييه. وثالثاً لأنني قد وجدت في تاريخهما العميق والغني بكل التفاصيل التي يحتاجها الباحث في الفلسفة اليونانية ما أغناني بشكل مستمر في فهم الفلسفة اليونانية والإلمام بتاريخها .ووجدت في هذه المؤلفات الإجابات لكثير من الأسئلة التي كنت وما أزال أطرحها بشأن الفلسفة اليونانية منذ بداياتي الأولى* ، وما قدمته لنا من موضوعات غنية ممتعة ،وما عرضته من مشكلات جديرة بالتأمل . وما زلت أعود كلما فكرت للبحث في موضوع يتصل بالفلسفة اليونانية إلى استقصاء رؤيتهما بشأن ما أبحث فيه .

هناك ثلاث شخصيات كبرى ــ كما يرى رسل ــ في الفلسفة اليونانية ارتبطت بمدينة أثينا وهم سقراط وأفلاطون الأثينيين بالمولد ،

وأرسطوطاليس الذي درس في أثينا وعلم فيها ، ويرى أن من المفيد إلقاء نظرة على تلك المدينة (أثينا) قبل أن يناقش أعمالهم [١] .

لعل من المفيد ، كما أوضح رسل ، إلقاء مزيد من الضوء على أثينا التي ارتبط تأريخها الثقافي بثلاثة من أكبر فلاسفة اليونان ، بل أكبر فلاسفة العالم وأكثرهم أثراً في مجرى التاريخ الثقافي والفكري العام للجنس البشري، لعل من المفيد أن نمنحها فسحة مناسبة من الدراسة من أجل الإضاءة على تاريخها السياسي فقد انتعشت هذه المدينة وجددت دورها بعد الانتصارات الباهرة التي أحرزها اليونان على جيوش الفرس الغازية بحروب انتهت بتحرير أرضهم ، وبإنهاء نفوذ الفرس بعد الحاق الهزيمة بأسطولهم الكبير[٢].

بدأت أثينا بعد تلك الحروب تظهر كحاضرة ثقافية أصبحت محط أنظار الفنانين والمفكرين فظهر المثال (Pheidias) الذي تولى مهمة نحت التماثيل للمعابد الجديدة وبصورة خاصة الصورة الضخمة للآلهة أثينا ، التي أخذت موقع الصدارة في الإكروبول الذي شيد من جديد . جاء المؤرخ هيرودوت من أيونيا ليعيش في أثينا، فوضع كتابه التاريخي عن الحروب الفارسية ، كما ظهر في أثينا الشاعر التراجيدي ايسخوليوس الذي بلغت معه التراجيديا الاغريقية قمتها . لقد بلغت أثينا في هذه الفترة ـ كما يشير رسل ـ قمة عظمتها سياسياً وثقافياً ، وهي الفترة الواقعة بين الحرب الفارسية وحرب البلوبونيز. كان وراء تلك العظمة التي حظيت بها أثينا سياسياً وثقافياً القائد بركليس Pericles الذي انتعشت معه الديمقراطية ، كما عمل عدة اصلاحات شملت مجلس الأعيان ، والمجلس التشريعي ، والمحاكم ، فأصبح من يعمل في تلك المجالس موظفين يتقاضون رواتب من الدولة ، ويتم انتخابهم عن طريق الاقتراع . لقد استمر ازدهار أثينا حتى عام ٤٣١ق.م وهو عام ظهور اسبارطة بوصفها منافسة لأثينا . وقد استمر

الصراع السياسي بين المدينتين حتى عام ٤٠٤ق.م، حيث هزمت أثينا ومات قائدها بركليس في بداية الحرب عام ٤٢٩ ق.م[٣] .

كان انهيار أثينا ـ المدينة التي كانت تمثل الحاضرة الثقافية لبلاد اليونان ـ وخضوعها لاسبارطة في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، يمثل التراجع الأول لها ، رغم وجود الفيلسوفين أفلاطون وأرسطوطاليس ، اللذين عاشا في عصر انهيار أثينا .

كان هذا حال أثينا ــ مدينة الفلاسفة الأثينيين سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس ــ قبل ظهور المقدونيين وهيمنتهم عليها بزعامة الاسكندر المقدوني كما أبان رسل .

أما اميل برهييه فكانت رؤيته مختلفة عن رسل فهو لا يريد أن يسلط الضوء على أثينا وحدها ، لأنه يرى أن الفلسفة في بلاد الإغريق قد ظهرت في مراكز عدة بالتعاقب ، وكان هذا التعاقب مناظراً للتقلبات السياسية ، فظهرت الفلسفة في القرن السادس (ق . م) في أيونيا المدينة البحرية التي اشتهرت حينها بغناها وتجارتها ، وبسبب وقوعها تحت هيمنة الفرس عام ٥٤٦ ق . م انتقل مركز الحياة الفكرية إلى إيطاليا الجنوبية وصقلية فظهرت هناك الفلسفة . وبعد حروب بركليس قائد أثينا أصبحت معه أثينا هي العاصمة الفكرية لليونان وفي الوقت ذاته كانت العاصمة البحرية للإمبراطورية اليونانية ، و استمر تزعمها للعالم اليوناني فكرياً وعسكرياً حتى الحرب البلوبونيزية[٤] . يبدو أن برهييه لا يرى أن أثينا كانت تمثل وحدها الحاضرة الفكرية الثقافية بل هناك حواضر أُخرى ، وأن ظهور الفلسفة في تلك المدن التي ظهرت فيها كان رهناً باستقرارها ، يضاف إلى ذلك أن أثينا حينما أصبحت هي الحاضرة الثقافية كان من أوائل الفلاسفة الذين قدموا إليها الفلاسفة الأيونيون وكانوا من المروجين للفلسفة في أثينا . كما أن الفكر الفلسفي قد لبس في كل مركز من المراكز التي ظهر فيها طابعاً مختلفاً

عن غيره [٥]. صحيح أن الفكر الفلسفي لدى الإغريق ظهر في مدن شتى ابتداءً بمدينة أيونيا التي نشأت بها الفلسفة ، وكذلك في ايطاليا الجنوبية وصقلية وإليا لكنه في نهاية الأمر انتهى إلى أثينا وبصورة خاصة مع الفيلسوفين أفلاطون وأرسطوطاليس اللذين نقلا لنا ما تبقى من ذلك الموروث الفلسفي ، الذي يأسى الفيلسوف نيتشه عليه لأننا لا نملك إلا القليل منه فكل نتاجهم كما يرى قد أُفلت من أيدينا [٦] .

لقد تغيرت أحوال أثينا عند نهاية القرن الخامس (ق.م) أي بعد عام ٤٠٤ وهو التاريخ الذي خضعت به لأسبارطة ، فعاشت بذلك أسوء فترات حياتها اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ، فتأثرت مزارع أثينا بسبب هذه الحرب . وتزعزع احترام الناس للآلهة والتمسك بالعبادات التي كانت معروفة في أثينا، كما انتهزت الدويلات التابعة لأثينا الفرصة لتعلن استقلالها عنها . هذا يعني أن أثينا لم تكن تحارب اسبارطة وحدها بل وبقية دويلات العالم اليوناني التي كانت خاضعة لها . وبهذا انهارت الإمبراطورية الأثينية بزعامة بركلس . وتمكنت اسبارطة من فرض حكومة الأقلية (الأوليكاركية) على أثينا ومن بينها ما عرف بحكومة الثلاثين الذين وصفوا بأنهم مجموعة من القساة المتعطشين للدماء [٧] .

كانت الحرب البلوبونيزية وبالاً على أثينا حيث أضعفتها وأفقدتها حريتها ، ثم بعد سنوات خضعت لهيمنة مقدونيا ، لكن هذه المرة لم تخضع فقط أثينا وحدها للمقدونيين بل أن العالم القديم كله وخلال فترة قصيرة من عام ٣٣٤(ق.م) إلى ٣٢٤ (ق.م) أصبح خاضعاً للإسكندر المقدوني ، إذ انهارت أمامه الامبراطورية الفارسية وخضعت اليونان كلها له ... ورغم أنه كان ينظر لنفسه بأنه حامل مشعل الحضارة اليونانية إلا أنه كان في نظر الأثينيين مجرد قائد مقدوني [٨] .

لقد خلفت حروب الإسكندر المقدوني آثاراً سيئة على حياة الأثينيين، و انعكست آثارها على تفكير الفلاسفة الذين ظهروا بعد أرسطوطاليس وبعد حروب الإسكندر المقدوني التي كانت ــ كما يرى فيها بعض المفكرين ــ أنها كانت محنة شديدة على الروح اليونانية بسبب فتحه لبلاد الشرق وإدخاله عناصر شرقية على الروح اليونانية[٩].

لقد تمازجت الروح اليونانية بالروح الشرقية وتأثر كل منهما بالآخر، وذلك بسبب زوال الحواجز السياسية التي كانت تفصل سكان بلاد اليونان وآسيا الصغرى وسكان الحضارات الشرقية ، وكانت هذه إحدى السمات التي تميز بها العصر الهلنستي [١٠] .

كان الإسكندر المقدوني وراء تأثير اليونانيين بالشعوب الشرقية ، وتأثرهم بها ، فهو لم يكن مجرد فاتح بل كان مستعمراً ، فحيثما ذهبت جيوشه كان يؤسس مدناً على غرار المدن اليونانية تدار شؤنها وفق أساليب يونانية ، فكان هؤلاء المستوطنون من الاغريق والمقدونيين ينصهرون مع السكان الأصليين الذين حلوا بينهم ، وبهذا نقل الاسكندر مؤثرات الحضارات اليونانية للعالم الذي فتحه ، فأصبحت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة وانتشرت لتصبح لغة التبادل التجاري . فأصبح ما للإغريق من فلسفة وعلم وفن يمارس تأثيره على الحضارات الشرقية القديمة [١١] .

كذلك ترك الشرق تأثيره أيضاً على اليونانيين بيد أنه كان تأثيراً - كما يشير رسل -أقرب إلى التراجع والانتكاس لتأثرهم بالتنجيم البابلي ، ومن هنا يرى أن العصر الهلنستي كان أكثر إيغالاً في الخرافة ، من العصور الكلاسيكية ، رغم ما شهده من توسع علمي وثقافي . ويبرر رسل ذلك بسبب أنه كان عصراً مضطرباً غير مستقر ولا آمنٍ فجيوش المرتزقة كانت تعيث فساداً في المناطق الريفية ، كما أن المدن التي بناها الإسكندر كانت أيضاً

تفتقر إلى الاستقرار، بسبب الصراع الذي نشب بين سكان المدن الجديدة وسكانها الأصليين فهذا العصر كان عصراً فاقداً للأمان [١٢] .

لقد أصبحت الحياة بعد موت الإسكندر أكثر تعقيداً ، فلم يعد اليوناني يشعر بفقدان الأمان فقط في المدن التي أنشأها الاسكندر وتركه مقيماً فيها يواجه سكانها الأصليين ، بل وبسبب الصراع الذي حل بين من جاءوا بعده لاقتسام تركته التي كانت تمثل امبراطورية واسعة الأرجاء . لقد ازدادت الحياة بعد موته قلقاً واضطراباً وخوفاً وهذا كله انعكس على الفلسفة في هذه الحقبة ، التي تمثل من الناحية التاريخية فترة تراجع في الأمن والحرية والاستقلال الذي عرفته بلاد اليونان بعد انتصارها على أساطيل الفرس ابتداءً من عام ٤٩٠ ق.م، فما حدث بعد ذلك من تفكك وتراجع أثر في الفلسفة التي عرفت بالفلسفة الهلينستية وهي القرون الثلاثة التي تلت موت الإسكندر المقدوني وامتدت إلى ما بعد الميلاد تقريباً ثلاثة قرون [١٣] . كما يؤكد برهييه أن الفترة الهلنستية تطلق على تلك الحقبة التي أصبحت فيها الثقافة اليونانية ملكاً مشتركاً بين جميع بلدان البحر الأبيض [١٤] .

من الصعب جداً عند دراستنا لهذه الفترة من تاريخ الفلسفة أن نفصل بين التاريخ السياسي وتاريخ الفلسفة، فما حدث من حوادث وويلات تركت آثارها واضحة على الفلسفة . فكما يرى بعض المفكرين أن موت أرسطوطاليس يدون نهاية العصر الذهبي للفلسفة الإغريقية ، ذلك العصر الذي تشكلت بداياته الأولى من طاليس حتى سقراط ثم تلته الفترة التي عُدت هي الأعلى كمالا في تاريخ الفلسفة اليونانية والتي امتدت من سقراط إلى أرسطوطاليس ، ثم بمجيئ فترة ما بعد أرسطوطاليس يفتتح عصر الاضمحلال والتراجع ، وينتمي مذهب وحدة الوجود للرواقية والمذهب المادي للأبيقوريين لهذه الفترة وأخيراً يبلغ التدهور ذروته مع مجيئ مذهب الشك المطلق للبيرونيين [١٥] .

يبدو واضحاً أن المهتمين بدراسة هذه الفترة من تاريخ الفلسفة قد ربطوا ما حل بالفلسفة من تراجع بما حدث سياسياً لبلاد اليونان ، فالفترة التي اعتبرت فيها الفلسفة الإغريقية الأكمل في تاريخها كان فيها وضع الإغريق الأعظم سياسياً ، بينما كان سقوط ا لإغريق سياسياً وتراجع دورهم إلى حدٍ ما مسؤولاً عن التراجع الكبير للفلسفة الإغريقية .

في الحقيقة أن السقوط السياسي لأثينا حدث قبل وفاة أرسطوطاليس بست عشرة سنة ، في معركة كيرونيا (Chaeronea) التي انتهت بخضوع الأثينيين لحكم المقدونيين . ورغم المحاولات العديدة التي بذلها الأثينيون للتخلص من نير المقدونيين وبطشهم إلا أن تلك المحاولات كانت فاشلة [١٦].

كان الخضوع للمقدونيين محنة عظيمة فقد فيها الأثيني حريته التي لا يستطيع أن يفكر بدونها تفكيراً حراً مطمئناً كما يشاء. فكما يشير الفيلسوف رسل أن الانسان حينما يقارن التأملات الفلسفية للعصر الهلنستي بنظائرها من الفلسفات السابقة من التراث الأثيني فلا بد أن يُلفت نظره موقف التراخي والتراجع الذي يميز عصر التدهور . ذلك أن الفلسفة مع المفكرين القدامى كانت تمثل مغامرة تتطلب يقظة الرائد وشجاعته . بيد أن الفلسفات اللاحقة رغم ما قِيل عنها بأنها كانت تتطلب من ممارسيها شجاعة ، لكنها أصبحت شجاعة الاستسلام والتحمل بصبر ، بدلاً من الإقدام الجريء وهو ما يتميز به المستكشف [١٧] .

ثانياً : اظهار الموقف من الفلسفة في القرن الثالث قبل الميلاد

ننتقل بعد هذا العرض ــ لمشهد الأحداث والتغيرات التي ألمت بحياة الأثينيين ، وانعكست آثارها السيئة على التفكير الفلسفي الهلينستي الذي شغل حيزاً كبيراً من اهتمام المفكرين والفلاسفة ــ لتأمل مواقف بعض المفكرين والفلاسفة من الفلسفة في القرن الثالث ق.م أو كما عرفت بالفلسفة الهلينستية ، وما أثاروه من تساؤلات كان أبرزها تساؤلهم حول

أصالتها ، هل أنها كانت مجرد إحياء للفلسفات السابقة لها دون تجديد أو إبداع ؟ أم أن الأمر خلاف ذلك ؟

نحاول من خلال عرضنا لتلك المواقف أن نلقي ضوءاً بسيطاً على المشكلة من خلال الإشارة لبعض القضايا الفلسفية التي نرى فيها ما يؤكد أصالة فلاسفتها وخصبهم الفلسفي .

عندما نتأمل كلمة الأصالة (originality) نجدها تشير لجملة من المعاني التي تؤكد فيها على الاختلاف والتميز عن كل ما سبقها من حيث المسائل التي تثيرها أو الوسائل التي تتبعها في معالجتها أو الأدوات المستخدمة في التحليل وبناء الأفكار[١٨] . أي أن الأصالة هي درجة عالية من الاستقلال في التوجه الحر في التفكير أو في أساليب التناول وطرائق المقاربة .

كانت الأصالة وماتزال إحدى المشكلات التي طالما توقف عندها الفكر الانساني متسائلاً عن صلته بماضيه كيف ينظر له ؟ كيف يقف منه ؟ كيف يؤوله ؟ وإلى أي حد يمكن أن يحقق اختلافاً نوعياً في بنية الأفكار والنتائج يمكن أن يؤسس لمرحلة جديدة ؟

عندما نتأمل مواقف المفكرين والفلاسفة من الفلسفة الهلينستية نلاحظ أن نظرتهم لأصالتها تنطلق غالباً من خلال مقارنتها بالموروث الفلسفي السابق لها . عندما نعود لتاريخ الفلسفة نجد أن الفلسفة الهلينستية لم تكن وحدها التي تعرضت للطعن في أصالتها ، حيث تعرضت الفلسفة في بداياتها الأولى للتشكيك باستقلالها عن الفكر الأسطوري ، الذي رأى فيه بعض المفكرين أنه قد مهد لظهور الفلسفة .كما اختلفت آراء المفكرين بتحديد بدايتها التي يؤكد أرسطوطاليس في كتابه الميتافيزيقا أنها كانت مع طاليس (١٩) وقد أخذ برأي أرسطوطاليس هذا بعض المفكرين الذين أشاروا أن مؤسس فلسفة الطبيعة وفقاً لأرسطوطاليس هو طاليس الملطي [٢٠] .

لم يقتصر الأمر على ذلك بل اختلفت رؤى المفكرين من بدايات الفكر الإغريقي فهناك من يرى أن بدايات الفكر الفلسفي لم تكن واضحة ، بل كان يكتنفها الغموض ، وهذا ما أكده الفيلسوف هايدجر بدراسته لفلسفات انكسيماندر، هيرقليطس وبارمنيدس فهؤلاء الفلاسفة كما يرى لم تحفظ نصوصهم المشتملة على حواراتهم وأفكارهم بصورة كاملة [٢١] .

بيد أن نيتشه الفيلسوف الذي شغل الإغريق حيزاً كبيراً من اهتمامه كان له موقف مغاير لهايدجر ـ وهو سابق له ـ بأن الإغريق (ويقصد هنا المعلمين الأوائل) قد ابتكروا الأنساق الكبرى للفكر الفلسفي ولم يبق لمجمل الأجيال اللاحقة شيئاً جوهرياً لتبتكره يمكن أن يضاف إلى تلك الأنساق الكبرى ... فهؤلاء الفلاسفة المعلمون وحدهم عاشوا للمعرفة فقط . فهم يتصفون بقوة على الأجيال اللاحقة وتكمن هذه القوة في ايجاد شكلهم الخاص ومواصلة اكتماله ...فهم لم يستعينوا بأي زي شائع ... فهم يمثلون النماذج الصافية أي الفلاسفة الأوائل أما من جاء بعدهم فهم فلاسفة هجناء [٢٢] . وفقاً لرؤية نيتشه كما يبدو فأن كل من جاء بعد مجتمع المعلمين الأوائل أو كما يطلق عليه أسم جمهورية العباقرة لم يأتِ بجديد يؤكد أصالته ، كما أثبت المعلمون الأوائل أصالتهم .

لا يعني الحديث عن أصالة الفلسفة الهلينستية انفصالها التام عن الموروث الفلسفي ، كما لا ينتقص انتماؤها لذلك الموروث والعودة لإحيائه من أصالتها اذا كانت قد أضافت له أو غيرت فيه بما يُضيف شيئاً جديداً اليه ، وبما لا يعد تشويهاً له ، صحيح أن الفلسفة الهلينستية كانت في جانب منها احياء لرؤى الفلاسفة السابقين ، لكنها كانت في الوقت ذاته تجديداً له بما أضافته له ، كما سنرى .

لقد اختلفت المواقف حول الفلسفة الهلينستية بين من يرى في إحيائها لمواقف الفلاسفة السابقين مجرد تكرار. وبين من يرى أنها لم تقف عند ذلك الموروث الفلسفي بل أضافت له ما رأته مناسباً لرؤيتها .

نحاول هنا أن نسلط الضوء على تلك المواقف التي بدا لنا بعض منها غير منصف بعض الشيء ، وبعضها الآخر كان موضوعياً منصفاً .

نبدأ أولاً بسرد بعض الآراء غير المنصفة ـ كما نرى ـ بما ذكره الفيلسوف وولترستيس في حديثه عن الطابع العام للفلسفة بعد أرسطوطاليس بقوله : " سرعان ما يمكن سرد قصة بقية الفلسفة اليونانية لأنها قصة انهيار ، إن الفلسفة بعد أرسطوطاليس أقل فترات الفكر اليوناني الثلاث تثقيفاً وبناء[٢٣] صحيح أن الفلسفة اليونانية بعد أرسطوطاليس قد فقدت الكثير من اشعاعها وإبداعها الذي عرفته منذ طاليس حتى وفاة أرسطوطاليس ، لكننا نتساءل كيف يمكن للمرء أن يمر بعجالة عندما يسرد ما تبقى من الفلسفة اليونانية ، لأنها كانت تمثل قصة انهيار للفلسفة ؟ كيف يمكن أن يتم ذلك مع وجود فلسفات مهمة مثل الأبيقورية والرواقية وفلسفة أفلوطين ؟ صحيح أن هذه الفلسفات ظهرت في ظل ذلك الانهيار السياسي و تأثرت به ، وانعكست آثاره السيئة عليها إلا إنها كانت فلسفات مبدعة كما سنرى

كما يقدم لنا الدكتور جون ليويس رؤيته المتشائمة عن الفلسفة بعد أرسطوطاليس الذي يعتبره آخر الفلاسفة الإغريق الذين نظروا للعالم نظرة متفائلة ، في حين أن من جاءوا بعده قد كتبوا فلسفة تراجع بشكل أو آخر ... فالفلسفة كما يرى لم تعد لواء من النار ينير الطريق أمام الباحثين عن الحق ، بل أضحت وكأنها أشبه بسيارة اسعاف تسير خلف موكب الحياة ، لتحصد من أنهكهم الكفاح وأصابتهم الجراح[٢٤] .

حينما أعود لتأمل تاريخ الفلسفة قبل أرسطوطاليس أجد من الصعب جداً ألّا أتساءل هل حقاً أن الفلسفة قبل أرسطوطاليس كانت شعلة تنير

الطريق للباحثين عن الحقيقة ؟ وأنها كانت متفائلة ؟ إذا سلمنا بهذا كيف يمكن أن نبرر اعدام سقراط ؟ قد يقدم لنا ما يدعم ابداعه في مجتمع لم يتحمله شأنه شأن كبار المبدين ، ولسوء فهم الفلسفة حتى ممن يدعون الاعجاب بسقراط وفلسفته من تلاميذه المقربين الذين نراهم يعرضون عليه كل ما يملكون من أموال لتهريبه من السجن . أن هذا الاقتراح ـ كما نرى ـ أقسى على سقراط من حكم الاعدام لأن هروب سقراط من السجن يعني تخليه عما آمن به من احترام للقوانين والإيمان بعدالتها .

كما يقدم لنا أفلاطون في رسالته السابعة مدى يأسه من محاولة إصلاح الدولة حيث يقول :" انتهيت أخيراً إلى الاقتناع بأن حالة الدولة الحاضرة كلها سيئة وإنها تحكم حكماً يدعو إلى الرثاء ، وأن دساتيرها المريضة لا يمكن أن يشفيها إلا إصلاح يتم بمعجزة ويؤيدها حسن الحظ "[٢٥] .

هذه الأمثلة تقدم لنا مشهد الفلسفة في أثينا التي كان يعيش فيها افلاطون وأرسطوطاليس في ظل حرب البلوبونيز التي كانت فيها أثينا خاضعة لأسبارطة .

وكيف يمكن لنا أن نبرر الغموض في فلسفة أفلاطون وتخفيه وراء عدد من الشخصيات في محاوراته ، إن لم يكن يريد بهذا أن يتجنب المصير الذي انتهى اليه سقراط ، وهو مبرر كافٍ لحذره الشديد . فهو لم يكن متفائلاً أن كل ما سيقوله لن تكون له عواقب وخيمة ؟

يختلف موقف رسل حول الفلسفة الهلينستية عن المواقف السابقة ، فهو يرى أن هذه الفترة قد شهدت نشأة المدرستين الأبيقورية والرواقية وكذلك نشأ الشك كمذهب فلسفي واضح المعالم .ومن هنا يؤكد أن هذه الحقبة لم تزل لها أهمية فلسفية ، وأن كانت أقل في أهميتها من الفترة التي كان فيها أفلاطون وأرسطوطاليس [٢٦].فرؤية رسل هذه تؤكد أن الفلسفة بعد أرسطوطاليس لم تنتهِ بدليل نشأة عدة مدارس فلسفية .

كما يقدم لنا رسل رؤية أخرى بشأن الفلسفة الهلينستية ، معلناً فيها أن الفلسفة في هذه الحقبة من تأريخها رغم ظهور عدة مدارس فلسفية ـ كما أشرنا لها ـ ولكن لم يكن بها جديد ، لحين ظهور الأفلاطونية الحديثة في القرن الثالث بعد الميلاد ، لكن العالم الروماني عند ظهورها كان يتأهب لانتصار المسيحية.(٢٧) يؤكد رسل هنا على مسألتين الأولى هي ظهور مدارس فلسفية أقل أهمية مقارنة بالفلسفة السابقة . والمسألة الثانية هي ظهور ما هو جديد فيها تمثل بفلسفة أفلوطين . الا أنها لم تحدث تأثيراً كبيراً رغم جدتها بسبب انصراف الناس عنها لاستقبالهم العقيدة الجديدة .

ويرى بعض المفكرين أنه رغم بقاء أثينا مركزاً للفلسفة بعد موت الإسكندر المقدوني عام٣٢٣ق.م ... لكن يلاحظ تناقص الإبداع الفلسفي ، وقد انكب الفلاسفة فيه على تجديد المذاهب القديمة مع عناية خاصة بالأخلاق ...فجدد أبيقور مذهب ديمقريطس، وجدد الرواقيون مذهب هيرقليطس [٢٨] .

ولكن تجديد المذاهب الفلسفية السابقة لا يخلو من إبداع ، صحيح أنه قد إرتكز على مذهب فلسفي قائم ، بيد إنه حاول أن يُضيف اليه ما رآه مناسباً له ، فلم تكن تلك المذاهب الفلسفية مذاهب مرددة لما كان موجوداً، وهذا ما سنراه مع المدرستين الأبيقورية والرواقية .

ثالثا : عرض نماذج مختارة عن الفلسفة الهلينستية

شملت الفلسفة الهلينستية أو الفلسفة بعد أرسطوطاليس صغار السقراطيين والفلسفة الأبيقورية والفلسفة الرواقية ، ومذاهب الشك الفلسفي والأفلاطونية المحدثة . بيد إننا سوف ننتقي نموذجين فلسفيين عبرا عن الفلسفة في هذه الحقبة التاريخية ، هما الفلسفة الأبيقورية والفلسفة الرواقية .

نـود أن ننـوه هنـا أننـا غيـر معنيـين في هـذا الاختيـار بالجـدل الـدائر حـول أسـبقية الفلسـفة الأبيقوريـة أم الرواقيـة . لأننـا سـنبدأ أولاً بـالتفكير الفلسـفي المادي الواقعي ، وننتهي بالتفكير العقلي الروحي الميتافيزيقي .

أ ـ ألأبيقوريـة Epicureanismيؤكـد كـل مـن رسـل وبرهييـه أن مؤسـس المدرسـة الأبيقوريـة هـو فيلسـوف أثيني ولـد في أثينـا لأبـويين أثينيـين عـام ٣٤٢ـ ٣٤١ ق.م وعـاش حداثتـه في سـاموس ثـم غادرهـا لأثينـا ، ولـم تطـل اقامتـه فيهـا طـويلاً لذهابـه إلى آسـيا الصـغرى بسـبب انهـاره بفلسـفة ديمقـريطس . ثـم عـاد مـرة أخـرى لأثينـا ليؤسـس مدرسـته فيهـا عـام ٣٠٦ أو ٣٠٧ وظـل فيهـا حتى وفاتـه عـام ٢٧٠ ق.م [٢٩] .

نلاحـظ تأكيـد الفيلسـوفين على أن أبيقـور فيلسـوف أثيني ، ربمـا لتميـزه بهـذه الميـزة عـن بـاقي فلاسـفة الحقبـة الهلينسـتية لأنهـم لـم يكونـوا أثينيـين ، وبهـذا يُضاف لفلاسفة أثينا الفيلسوفين المهمين سقراط وأفلاطون .

عـاد أبيقـور إلـى فلسـفة ديمقـريطس متـأثراً بمـذهب الـذرة الـذي مثلـه لوقيبوس وديمقريطس . فالذرة هي أصل العالم ومنها تكون كل شيء .

حينمـا نتأمـل مـا طرحـه أبيقـور نجـد أن هنـاك اختلافـاً بـين ديمقـريطس وأبيقـور وهـذا الاخـتلاف حتى لـو كـان بسـيطاً يبقـى اخـتلاف بـين الفلسـفتين ، صـحيح أن أبيقـور قـد سـار على منـوال الخطـوات التي وضـعها ديمقـريطس بشـأن نشـأة الموجـودات والتي حـددها بالـذرة والخـلاء ، إلا أن أبيقـور خـرج عمـا آمـن بـه ديمقـريطس لاعتبـاره أن القـوانين الطبيعيـة تهـيمن بصـورة تامـة على الذرات [٣٠] .

أنكـر أبيقـور هيمنـة القـوانين الطبيعيـة على حركـة الـذرات خلافـاً لمـا اعتقـد ديمقـريطس وهـذا لـيس خروجـاً على مـا آمـن بـه ديمقـريطس فقـط ، بـل هـو أيضـاً يعـد خروجـاً على المـوروث الإغريقـي الـذي كـان يـؤمن بفكـرة وجـود

قوانين تحكم الكون والآلهة هي من يشرع تلك القوانين . وعليه فقد أُضطر أبيقور في رفضه للدين إلى استبعاد قانون الضرورة[٣١] .

لقد أدرك أبيقور أن هناك ارتباطاً بين الدين والضرورة ، ففكرة الضرورة أصلها ديني ، ومن هنا رأى أن نقد الدين ورفضه لا يمكن أن يكتمل إذا لم يتم القضاء على فكرة الضرورة [٣٢] .

كما يبدو أن أبيقور قد اتخذ من فكرة عدم الإيمان بوجود قوانين ضرورية أساساً له لتفسير كل ما يجري فيه ، فهو يرى أن كل ما يحدث يتم بصورة آلية باجتماع الذرات وافتراقها ، وعليه ينبغي أن لا نعتقد أن ما نشهده من نظام كما يبدو لنا في دوران الكواكب انه من عمل أحد الآلهة [٣٣] أي أن الوجود والفناء في العالم سببه الحركة الآلية للذرات ذاتها ، فالذرات مهما اختلفت أشكالها أو أحجامها أو أوزانها فهي تتحرك باتجاه واحد من أعلى إلى أسفل وبسرعة واحدة متساوية [٣٤] .

يختلف أبيقور عن ديمقريطس في تصوره للكيفية التي تلتقي بها الذرات مع بعضها فديمقريطس يرى أن الذرات الساقطة بصورة عمودية نحو المركز ترتطم بالذرات الصغيرة المتناثرة هنا وهناك ، وبهذا تلتقي ببعضها .هذا ما يرفضه أبيقور مؤكداً أن الذرات حينما تسقط في الخلاء بصورة عمودية ، وبسرعة واحدة لا يمكن لها أن تصطدم إحداها بالأُخرى ،ولهذا يفترض أن لها إرادة حرة بفضلها تستطيع أن تنحرف بدرجة يسيرة عن خطها العمودي، وبهذا تتمكن من الارتطام بعضها ببعض [٣٥] . إن هذا الانحراف مهم جداً فهو دليل على أن الذرة حرة . وهو خروج واضح على فكرة الضرورة الصارمة التي قيد بها ديمقريطس حركة الذرة . كانت عودة أبيقور لفلسفة ديمقريطس وتأثره بها والقول مرة أخرى بالذرة إحياءً جديداً لفلسفة الطبيعة التي انشغل بها الفلاسفة قبل سقراط ، ورأوا أن قوانين الطبيعة تجري على كل موجود فيها ، بما في ذلك الانسان ، فهو جزء من الطبيعة .

لكن حينما نتأمل جيداً فلسفة أبيقور ،نجد أنه لم يكن مجرد مقلد لما قال به ديمقريطس، بل كان ناقداً لفلسفة ديمقريطس برفضه لفكرة الضرورة التي قيد بها ديمقريطس حركة الذرات ، فحاول أن يبرهن على أهمية التخلي عنها ، فالذرات عندما تتحرك في الخلاء بحركة عمودية لا يمكن لها أن تلتقي ببعضها بالكيفية التي تصورها ديمقريطس ، صحيح أنه فسر كل شيء بصورة آلية ، لكنه لم يبرهن لنا كيف ترتطم الذرات الساقطة نحو المركز بالذرات الصغيرة المتناثرة هنا وهناك . ونتساءل هنا ماذا بشأن حركة الذرات الصغيرة ؟ إذا كانت تتحرك كذلك بصورة عمودية عندها لا يمكن للذرات أن تصطدم ببعضها . كما يبدو أن ديمقريطس لم يقدم برهاناً على ذلك ، بينما برهن أبيقور أن سبب ارتطام الذرات ببعضها لانحرافها بدرجة يسيرة عن خطها العمودي . والسبب في هذا الانحراف كما افترض أبيقور هو أن الذرة حرة الارادة .

لا يمكن لنا أن ننكر أن رؤية أبيقور التي فسر بها الطبيعة هي تجديد وليس تقليداً لما ذكره ديمقريطس ، فهو لم يخرج فقط على ما ذكره ديمقريطس بل على الموروث الفكري الذي تمثل بالفكر الأسطوري وكذلك الموروث الفلسفي الذي مثله فلاسفة المدارس الطبيعية الذين رأوا أن الطبيعة تحكمها قوانين صارمة وقوانينها تسري على كل موجود بها . القضاء على فكرة الضرورة يعني التصدي للدين اليوناني والتخلص من قيوده التي تأسر الانسان وتجعله يعيش في شقاء وألم . فكانت غايته من وراء ذلك تقديم الطمأنينة لنفوس البشر ، وتخليصها من المخاوف التي تعذبها وتمنعها من أن تتذوق طعم اللذة التي خلقت لها [٣٦] . بدأ أبيقور في طرح تصوراته الفلسفية بالطبيعة ومنها توجه في بحثه لعالم الانسان ومشكلاته التي يعاني آلامها ، والتي أفقدته طمأنينته .

لقد اضحت نفس الانسان كما يرى أبيقور مضطربة تحاصرها المخاوف . التي أرجعها أبيقور لخوفه من الآلهة وغضبها عليه ، ولخوفه من العقاب بعد الموت . لذلك يؤكد أبيقور أنه سيقضي على هذين الخوفين (الخوف من الآلهة والخوف من الموت) الذين أساسهما الفكر الديني اليوناني [٣٧] من الواضح أن أبيقور كان رافضاً للدين الذي كان مهيمناً على حياة الانسان في اليونان ، ويمكن أن نقول أن نقده الذي وجهه لممارسات الناس في عباداتهم يعتبر أشد نقد وجه للدين اليوناني ، فلأول مرة يتوجه النقد للآلهة وممارساتها ، في حين كانت الانتقادات السابقة موجهة لممارسات الانسان الدينية ، كما هو الحال مع أكسانوفان الذي أُعتبر نقده لاذعاً للأثينيين وعباداتهم التي صور بها هوميروس وهزيود الآلهة شبيهة بالبشر ، مشيراً إلى أن الثيران والخيول لو كانت تمتلك أيدياً تستطيع أن ترسم بها وتنتج أعمالاً فنية كالبشر لصورت آلهتها شبيهة بها [٣٨] .

كذلك يقرر الفيلسوف السفسطائي بروتاجوراس في بحثه المتصل بالآلهة أنه ليس بمقدوره التوصل إلى فكرة يقينية حول وجود الآلهة أو عدم وجودها ولا بماذا تتصف ، وذلك لأن هناك ما يحول بيننا وبين مثل هذه المعرفة اليقينية أهمها غموض المسألة وقصر العمر [٣٩] . يختلف نقد أبيقور عن النقدين السابقين ، فهو أقر بوجود الآلهة وأنكر تأثيرها على العالم .

يحاول أبيقور في نقده للآلهة أن يبرهن أن ما طرحه في الطبيعة يؤكد له أن كل ما يحدث فيها يحدث بصورة آلية ، باجتماع الجواهر الفردة وافتراقها ، وليس هناك شيء آخر يتدخل في ذلك ، والدليل على ذلك هو أن النقائص الموجودة في العالم تشهد على أنه لم يخلق بإرادة إلهية . فكل شيء حدث بفعل الطبيعة ذاتها ، وليس للآلهة دور في ذلك فهي لم تخلقه ولا تهتم به ، وكل ما يحدث سببه تلاقي الجواهر الفردة [٤٠] .

حاول أبيقور أن يبرهن على عدم وجود دور للآلهة في خلق العالم ورعايته، كما بين لماذا ليس لها دور في أفعال الانسان ومعاقبته ؟

يؤكد أبيقور أن الآلهة كائنات خالدة وسعيدة ... ومن هنا يتساءل لماذا إذن نعزو إليها شيئاً يتناقض مع السعادة والخلود . كما أن هذا هو السبب الذي يمنعنا من أن نلقي على عاتقها مهمة السهر على رعاية هذا الكون كله، ولذات السبب لا ينبغي لنا أن نُنسِب إليها عاطفة الغضب ، وذلك لأن الكائن الخالد والسعيد لا يشعر بأي ألم كما أنه لا يتسبب بأي ألم مطلقاً للآخرين ، وهذا يدل على أنه لا يتعرض للغضب . وعلى هذا فليس هناك ما يجعلنا نخاف الآلهة [٤١] . يبدو أن تصور أبيقور للآلهة أنها في سعادة مطلقة يصرفها عن مسؤولية السهر على العالم ورعايته ، إذ أن ذلك السهر والرعاية للعالم فيه ألم وحزن وهذا يناقض كونها سعيدة . ولأنها سعيدة فهي غير مسؤولة عن خلق العالم ، ولا يعنيها ما يجري فيه ، فهمها الأول هو التمتع بما لديها من نعم ، وبما يحقق سعادتها ، فلو كانت الآلهة مشغولة بالعالم لما أصبحت تحيا بسعادة مطلقة .

يبدو واضحاً أن أبيقور أراد بإنكاره أن يكون للآلهة دور لكل ما يجري في العالم ، ولما يجري في عالم الانسان بصورة خاصة أن يشعر الانسان بالطمأنينة ، وذلك لأنه يرى أن ليس هناك سبب لخوفه من غضب الآلهة منه ، وتعرضه لعذاب الجحيم بعد الموت ، لأن الآلهة مشغولة بعالمها وغير معنية بعالم الانسان ، وعليه لا يصبح الموت حينما يفهم فهماً صحيحاً شراً . فلو عاش الانسان وفقاً لمبادئ أبيقور ـ كما يرى رسل ـ للتخلص من الشقاء الذي يشعر به لخوفه من الآلهة [٤٢] . هذا يعني أن أبيقور يقر بالموت لكنه ينكر الفهم الخاطئ لما يحدث للإنسان بعد الموت من عذاب الجحيم ، ذلك العذاب الذي يشعره بالشقاء وهو يعيش في الحياة.

لم يكن نقد أبيقور للآلهة وطرح تصوره المخالف للموروث الإغريقي ، مهمة يسيرة خاصة إذا نظرنا لذلك الموروث ابتداءً من الفكر الأسطوري الذي أرجع خلق العالم للآلهة وكذلك نظامه ورعايته وكل ما يجري فيه لها، صحيح أن هوميروس صور الآلهة شبيهة بالبشر ، تحب وتكره وتتصارع فيما بينها ... الخ . إلا أن اليوناني كان يُبجل آلهته ويخشاها ويقدم لها القرابين ويحرص على أداء طقوسه ويحترمها خوفاً منها وتقرباً لها .كما حدث ذلك مع سقراط الذي حكم عليه بالإعدام ولم ينفذ الحكم لمدة شهر بسبب خروج سفينة من أثينا إلى ديلوس لأداء طقوس العبادة ، فلا يجوز تنفيذ حكم الموت بأحد حتى عودتها ، لأن هذا الشهر كان يمثل لديهم شهر حرام (٤٣) .

ليست رؤية أبيقور خروجاً على الموروث الإغريقي فقط ، بل هي رؤية اتسمت بالجرأة ، وكما يبدو أن أبيقور كان يعتقد أن الوقت قد حان لنقد الدين ، كما يبدو أنه كان متفائلاً بأن ما سيطرحه لن تكون له عواقب شديدة ، ربما تؤدي إلى قتله ، حينما يفهم منها الإساءة للآلهة كما حدث مع سقراط الذي اتهم بشتم الآلهة وحكم عليه بالإعدام بسبب ذلك الاتهام .

لا يخلو نقد أبيقور الذي وجه للآلهة من غاية سياسية . صحيح أنه أراد أن يشعر الإنسان بالطمأنينة ويبعده عن الشقاء الذي يحرمه من التمتع بمسرات الحياة وهذا كله يصب في مجال الأخلاق ، وهي الموضوع الذي شغل الحيز الأكبر من تفكير الفلاسفة بعد أرسطوطاليس . لكنه حينما أكد أن الآلهة لم تخلق العالم وأنها غير معنية بشؤون الإنسان فيه ، ربما أراد من وراء ذلك أن يحث اليونانيين على تغيير واقعهم المليء بالغموض والاضطراب ويشعرهم بأنهم وحدهم المسؤولون عن تغيير ذلك ، خاصة وأنه حاول أن يبرهن على أن الآلهة لم تخلق العالم وأنها غير معنية بما يجري فيه لأنه كما أشار مليء بالنقائص . وهذا نقد للموروث الإغريقي من جانب ،

وتـأثرٌ بمـا كانـت عليـه بـلاد اليونـان في تلـك الحقبـة التاريخيـة ونقـد لهـا مـن جانب آخر.

مـا قدمـه أبيقـور مـن نقـد يؤكـد أصـالته وانتمـاءه للفلسـفة اليونانيـة التي عرفـت النقـد ــ منـذ بـداياتها الأولى مـع المدرسـة الأيونيـة ــ الـذي أكـد فيـه الفلاسـفة إبـداعهم عبـر ذلـك التـاريخ الطويـل لهـا ، ففـي الوقـت الـذي ينتقـد الفيلسـوف مـا كـان سـائداً منكـراً لـه رافضـاً ، يقـدم في الوقـتِ ذاتـه مـا يـراه مناسـباً بـديلاً عمـا أنكـره . صـحيح أن أبيقـور كـان معجبـاً بـالموروث الإغريقـي إلا إنـه كـان كمـا لاحظنـا متـأملاً لـه تـأملاً مخلصـاً مكنـه مـن نقـده الصـريح لـه ، فهـو لـم يتوقـف عنـده مـردداً لـه ، بـل حـاول أن يتـرك بصـمته الخاصـة بـه التي أضـافها لـذلك التـراث الفلسـفي المتمثـل بفلسـفة ديمقـريطس والتـراث الأسطوري والديني .

ب : الرواقيةStoicism

لقـد أثـار ظهـور الرواقيـة جـدلاً واسـعاً بـين الفلاسـفة والمفكـرين حـول أصـالة فلسـفتها وصـلتها بالفلسـفة الإغريقيـة السـابقة لهـا . ولسـنا هنـا بصـدد حصـر كـل مـا كتـب عنهـا ، ومـا أثارتـه مـن مشـكلات ، بـل أن اختيارنـا لهـا كمـا نوهنـا سـابقاً إضـافة للأبيقوريـة نمـوذجين نحـاول مـن خلالهمـا معرفـة حقيقـة الفلسفة في القرن الثالث قبل الميلاد والكشف عن مواطن إبداعها .

يواجـه الـدارس للفلسـفة الرواقيـة عقبـات تجعـل مـن دراسـتها أمـراً صـعباً ، وقـد نبـه الفلاسـفة والمفكـرون لأبـرز تلـك العقبـات التـي تكمـن في غيـاب مؤلفـات الـرواقيين الأوائـل لـم يبـقَ منهـا سـوى شـذرات قليلـة . ومـا متـوفر بـين أيـدينا مـن مؤلفـات كاملـة هـي لـ (سـينكا) و (أبكتـاتوس) و (مـرقص أورليـوس)، وهـؤلاء ينتمـون إلى القـرنين الأول والثـاني بعـد الميلاد.[٤٤] هـذا يعني أننـا نطلـع على فلسـفة الـرواقيين الأوائـل بصـورة غيـر مباشـرة مـن نصـوص

الـرواقيين الرومـان ، ومـن عصـور قـد بعـدنا عنهـا في (القـرنين الأول والثـاني بعد الميلاد) ، أي بعد أربعة قرون بعدها .

و يشـير بعـض المفكـرين ـ إضـافة لمـا سـبق ـ إننـا نقـرأ الـرواقيين الأوائـل مـن خـلال نصـوص خصـومهم الـذين كتبـوا عـنهم على سـبيل المثـال بلوتـارخوس في كتابيـه ضـد الـرواقيين وتناقضـات الـرواقيين ... فهـو كمـا يشـير برهييـه كثيراً مـا يعمد إلى تزوير فكر الرواقيين ليتمكن من إبراز التناقض بينهم [٤٥] .

إضـافة لمـا ذكرنـا تتحـدث المصـادر عـن أن الـرواقيين الـذين عُرفـوا في القـرن الثالـث ق . م كـانوا مـن الأغـراب والـدخلاء ، الـذين جـاءوا مـن المنـاطق الواقعـة في أطـراف منـاطق سـيادة الحضـارة اليونانيـة ، ومـن منـاطق التخـوم، فهـذه الأمصـار لـم تكـن معنيـة بـالتراث المتمحـور حـول فكـرة وحـدة اليونـان الكبـرى . ويضـاف لـذلك أنهـم كـانوا متـأثرين بالشـعوب التي قـدموا منهـا ، فزينون مؤسس الرواقية ولد في كيتوم ، وهي مدينة من مدن قبرص .[٤٦]

ولـم يقتصـر الأمـر فقـط على الـرواقيين الأوائـل أنهـم لا ينتمـون للـروح اليونانيـة ، لأن أكثرهم كـانوا مـن السـوريين ، بـل كـذلك الحـال مـع الـرواقيين المتـأخر بـين معظمهـم كـان مـن الرومـان .[٤٧] كمـا يبـدو يـراد مـن هـذه الإشـارة تنبيهنـا إلى أن جميـع الـرواقيين الأوائـل مـنهم والمتـأخرين الـذين كتبـوا عـنهم ـ وهم مصادر معرفتنا بهم ـ لا ينتمون للروح اليونانية

يـذكر أن زينـون هـو مؤسـس الرواقيـة وهـو فينيقـي ولـد في مدينـة كيتـوم بجزيـرة قبـرص ، ولا نعـرف تـاريخ مولـده بالضـبط ، إلا أنـه يقـع في النصـف الثـاني مـن القـرن الرابـع ق . م . ويـذكر أنـه ولـد سـنة ٣٣٦ ق . م . ثـم أنتقـل في شـبابه الى أثينـا ـ ولسـنا هنـا بصـدد معرفـة سـبب زيارتـه لأثينـا ، هـل لممارسـة التجـارة أم لسـبب آخـر- ظـل مقيمـاً فيهـا مقـبلاً على تعلـم الفلسـفة ، فحضـر دروس اقـراطيلس الكلبـي ... وتـردد على المـدارس الفلسـفية حـوالي عشـرين عامـاً . ثـم أنشـأ مدرسـة خاصـة بـه وكـان يحاضـر في رواق بـويكيلي stoa

poikile ، وهو عبارة عن ممر مسقوف ومصبوغ بألوان متعددة ، ومن هنا جاء أسم الرواقية . (٤٨)

تعلم زينون الفلسفة في أثينا فكان تلميذاً لإقراطيلس الكلبي وأستلبون الميغاري ، وكزينوقراطس و بوليمونس خليفتي أفلاطون في رئاسة الأكاديمية. (٤٩)

تأثر زينون أيضاً بفلسفة الطبيعة لهيرقليطس ، وأن النار هي أصل الوجود وفكرة التغير. كما أخذ فكرة العود الأبدي عن إنبادوقليس . (٥٠)

يبدو أن زينون أخذ الفلسفة عن الأثينيين وتأثر بها ، تأثراً كبيراً لا يخفى على أحد فحينما نقرأ الرواقية نجد أثر هيرقليطس وأنبادوقليس والكلبيين وأفلاطون . وهذا يجعلنا نتساءل باستغراب كيف أن الرواقيين ــ وبصورة خاصة أوائل منهم ـ رغم هذا كله يقال أنهم لا ينتمون للروح اليونانية ، بل أكثر من هذا ما ذكره ديوجين بقوله أن الأثينيين قد كرموا زينون حيث منحوه تاجاً من ذهب وقبراً في مدفن العظماء ، لأنه أستحق تقدير أثينا لسبب أنه كان يحث الشباب على الفضيلة والحكمة . (٥١) هذه المكانة التي حظي بها زينون لم يحظ بها أرسطوطاليس رغم أنه كان أحد الشخصيات الكبرى ـ كما أشار رسل ـ التي ارتبطت بأثينا لأنه درس بها وعلم فيها(٥٢) ربما يقول قائل أن الظروف قد تغيرت واختلفت نظرة الأثينيين ، وصحيح أن أرسطوطاليس ولد في مدينة أسطاغيرا (Stagira) إلا أنه عاش حياته الأولى في مقدونيا بصحبة والده الذي كان طبيباً لملك مقدونيا ، كما أ أصبح فيما بعد معلماً للإسكندر المقدوني من هنا كان ينظر له أنه مقدوني ، ومعروف مدى كره الأثينيين للمقدونيين لكن رغم ذلك نعتقد أن الموقف من الرواقيين . خاصه الأوائل . لم يكن منصفاً أو لم يكن موضوعياً .

لقد شغلت الأخلاق حيزاً كبيراً من اهتمام زينون ، حيث شغلته فيها مسائل مهمة كمشكلة الحتمية وحرية الارادة، فهذه المشكلة نراها تفرض

وجودها على الفلسفة الرواقية كلها . فكل ما يجري في هذا الكون يجري وفقاً لقانون صارم لا يمكن لأي موجود الخروج عليه .

بدأ زينون بطرح رؤيته عن الحتمية بتفسيره للطبيعة فعاد لفلسفة هيرقليطس الذي رأى أن النار هي المادة الأولى التي جاء منها كل شيء وإليها يعود ،فتشكل العالم عندما تحولت النار الى بخار ناري ، تكون منه أولاً الهواء ، ثم الماء الذي تكاثف جزء منه الى تراب وظل جزء آخر ماء ، وكان الجزء الثالث منه هواء . [٥٣] رغم أن المادة الأولى لجميع الموجودات هي النار إلا أن الموجودات تتفاوت وفقاً لعناصر تكونها، ولنسب تلك العناصر ، فعندما حول زيوس (النار) جزءاً من نفسه الى ماء تميز منه عنصران إيجابيان هما النار والهواء وعنصران سلبيان هما الماء والأرض (التراب) .[٥٤] هكذا يتكون العالم وهو عالم فاني ، سيأتي وقت ينتهي فيه حينما يحدث الاحتراق الهائل وهو ما يعرف بالسنة الكبرى ، فلا يبقى شيء سوى النار التي تحل محله ثم يتصاعد منها مرة أخرى سلسلة من التكاثف لتكون بداية كون أخرى ويكون مصير هذا العالم الجديد إلى الفناء أيضاً عند حدوث الاحتراق الهائل ، كما انتهى الكون السابق .[٥٥]

هكذا كما يرى زينون تستمر الوقائع دون توقف ، لكن ما يميزها أنها تجري بانتظام وانسجام ، لأنها تسير وفقاً لتدبير وعناية إلهية ، وفقاً لقانون ضروري حتمي لاعتقاد الرواقيين بالحتمية أو القدر. [٥٦]

كما هو واضح من العرض السابق أن الرواقيين لم يكونوا مجرد مرددين لما أخذوه عن هرقليطس ، فتفسيرهم لما يجري في الكون يقدم لنا تصورهم الخاص بهم ، فبالرغم من تأثرهم بفكرة التغير لدى هرقليطس ، والتي رأى فيها أن كل شيء في حالة سيلان دائم فلا يبقى شيء على حاله ، إلا أن الرواقيين الذين سايروا هرقليطس بذلك عندما أقروا باستمرار التغير ، قد أرجعوا ذلك لقانون الحتمية أو القدر وهو صادر عن الآلهة التي ترعى كل ما

يجري في هذا الكون . فما يجري من وقائع في عالم من العوالم يعود ليتكرر في العوالم اللاحقة .

وهنا أيضاً تخالف الرواقية معاصرتها الأبيقورية التي حاولت جاهدة القضاء على فكرة الحتمية كما ذكرنا ذلك.

إن عودة الرواقية لفلسفة هيرقليطس إحياء جديد لفلسفة الطبيعة التي شغلت تفكير الفلاسفة قبل سقراط ، وانصرف عنها اهتمام الفلاسفة للبحث في عالم الانسان مع سقراط والسفسطائيين . صحيح أن تلك الفلسفات قالت بأصل واحد لجميع الموجودات سواء كان عنصراً واحداً كالماء أو الهواء أو غيره ، أو القول بعدة عناصر كما رأى فلاسفة الكثرة . إلا إنهم لم يوحدوا بين موجودات العلم المادي وبين الآلهة ، حتى لو كانت جميعها تتشكل من ذات المادة ، فالآلهة تختلف عن بقية الموجودات لأنها تتكون من مادة ألطف منها . كما إنها تحيا في العالم العلوي أو في السماء التي تمثل موطن الآلهة كما أشار هزيود ، واستمر ذلك التصور لدى الإغريق حتى ظهور الفلسفة الرواقية التي خرجت على ذلك الموروث ، حينما جعلت الله (زيوس) محايثاً للعالم، وليس منفصلاً عنه ، إنه روح العالم ، وكل جزء في هذا العالم فيه جزء من النار الإلهية . [٥٧] هذه الرؤية التي قدمها الرواقيون عن الله وصلته بالإنسان وبالكون كما يشير برهييه تتصف بسمات جديده لم تعرف من قبل لدى الإغريق ... فإله الرواقيين يحيا مع البشر ومع الكائنات الأخرى وينظم كل مافي الكون لصالحهم فلا يخرج شيء عن عنايته . [٥٨]

ويبدو أن وراء طرح الرواقيين لفكرة الإله المحايث للعالم ـ التي خرجوا بها على الفكر الأسطوري و الفكر الفلسفي الذي كان فيه الإله مفارقاً للعالم منفصلاً عن البشر وعليهم أن يرتقوا إليه ـ غايات سياسية وأخلاقية، فالأيمان بوجود إله مدبر لهذا الكون شيء لا يثير الاستغراب لكن

أن يُجعل الإله مُحايثاً للعالم ـ خلافاً لما عرفه الفكر قبل الرواقية ـ يجعلنا نتساءل لماذا تقدم الرواقية مثل هذه الرؤية في الوقت الذي سلبت فيه معاصرتها الأبيقورية أن يكون للإله أي دور يقوم به لكل ما يحدث في العالم .

لا يبدو أنها أرادت من وراء ذلك مجرد الرد على ما طرحته الأبيقورية . بل إنها أرادت بفكرة وحدة الوجود ، وأن الإله محايث للعالم أن تعالج مسألتين الأولى أن تعيد للإنسان الأمان والطمأنينة في تلك الفترة التي سادتها الفوضى والاضطراب ، وفقد فيها اليوناني حريته ، فهو ليس وحيداً فالإله يحيا معه قريباً منه ، كما أرادت أن توجه الإنسان لتأمل ما يجري في الكون، فهناك قانون يسري فيه لا يمكن ايقافه ، وكل ما يحدث في هذا العالم يحدث بمقتضى ارادته ، فهو مقدر له أن يحدث وعلى الإنسان إن أراد أن يحيا بطمأنينة أن يعي أولاً ذلك ، وأن يقبل به ويسير وفقاً له ثانياً .

أما المسألة الثانية ـ كما نرى ـ ربما أرادت الرواقية بطرحها لفكرة الإله المحايث للعالم القضاء على الفهم الخاطئ عن الآلهة ، وتصويرها أنها غاضبة من البشر وأنها تسعى لمعاقبتهم بعد الموت ، وهوما عرف بعذاب الجحيم بعد الموت . فإله الرواقية كما قدمته لنا رقيق حاني يرفق بموجوداته في الحياة والموت ، فحينما يأتي أوان الفناء وهو وقت احتراق العالم ، نراه يعمل أولاً على سحب الرطوبة من أجسام الموجودات لتجف ، وبهذا تصبح سهلة الاحتراق ، فلا يبقى ماء على وجه الأرض ، عندها يقوم الإله بنشر اللهب لتلتهم النيران العالم كله فيتم ذلك الاحتراق برفق ومن غير عنف[٥٩]

يثير الاحتراق حالة من الهلع والفوضى لكن كما صورته الرواقية يحدث بمنتهى الشفافية والنظام ، وذلك لأن إله الرواقية كله رحمة لا يرغب في تعذيب مخلوقاته التي أوجدها . هذا التصور يعكس نزعتهم الصوفية الروحية التي جسدوها بوحدة الوجود التي تركت آثارها على فلاسفة

العصور اللاحقة كما نرى ذلك مع الفيلسوف سبينوزا لقوله بوحدة الوجود التي تمثلت في طرحه لفكرة الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة .

ومن الواضح أن ما قدمته الرواقية من تصورات فلسفية عن العالم ونظامه وكل ما يحدث فيه والصلة بين موجوداته يؤكد أصالتها التي تمثلت في جرأتها التي نقدت بها الموروث الإغريقي ــ فلسفة هيرقليطس ، والفكر الديني ــ وخرجت عليه كما رأينا من جانب واهتمامها بمشكلات الانسان ومعاناته في العصر الذي كانت تحيا به من جانب آخر. وهذا يؤكد أن الفلسفة في القرن الثالث (ق.م) ـ على الرغم من تراجع ذلك العصر سياسياً وما ساد فيه من فوضى ومشكلات ــ كانت حاضرة في الحياة الفكرية وأن أفكار الفلاسفة وتأملاتهم جديرة بالاهتمام .

الهوامش

*أعني هنا مرحلة البكالوريوس التي بدأ معها اهتمامي بالفلسفة اليونانية وتحديداً منذ عام ١٩٨٦ . ١٩٩٠ .

١ــ برتراندرسل : حكمة الغرب ، ترجمة د . فؤاد زكريا ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ، ١٩٨٣ ، الجزء الأول ص٧٧.

٢. المرجع السابق ، ص٧٧ – ٧٨

٣. أنظر المرجع السابق ، ص ٧٨ . ٧٩ .

٤ــ إميل برهييه : تاريخ الفلسفة ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٧ الجزء الأول (الفلسفة اليونانية) ، ص ٥٥.

٥. المرجع السابق ،ص ٥٥.

٦ــ فريدريك نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي ، تعريب سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣ ، ص٤٤.

٧ــ حول هذه التفاصيل ينظر جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة توفيق الطويل، دار المعارف ، فرانكلين ، مصر ، نيويورك ، ١٩٦١ ، ج ٣ ، ص ٩ ، وكذلك د . حسين الشيخ : دراسات في تاريخ حضارة اليونان والرومان ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ١٩٨٧ ، ص١١٢ --- ١١٣ ، وكذلك ينظر كيتو . هـ . د : الإغريق ، ترجمة عبدالرزاق يسري ، مراجعة محمد صقر خفاجة، دار الفكر العربي ، ١٩٦٢ ،ص ١٩٨-- ١٩٩.

٨. برتراند رسل : حكمة الغرب ، ج ١ ، ص١٥٩.

٩ــ عبدالرحمن بدوي : خريف الفكر اليوناني ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، دار القلم ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٧٩ ، ص٦ .

١٠ــ أميره حلمي مطر: الفلسفة تاريخها ومشكلاتها ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة طبعة جديدة ، ١٩٩٨ ، ص٣٤٤ .

١١. برتراندرسل : حكمة الغرب ، ج ١ ، ص١٦٠.

١٢. المرجع السابق ، ص١٦٠ – ١٦١ .

١٣. لأميره حلمي مطر: الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها ، ص٣٤٤ .

١٤ـ إميل برهييه : تاريخ الفلسفة ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٨ ، ج٢ (الهلنستية والرومانية) ، ص٣٤.

15 – W illiam Turner . S . T . D : History of philosophy , Ginn and co ,Boston ,u.s.a ,1929 ,P.161 .

16–Ibid,P.161 .

١٧. برتراند رسل : حكمة الغرب ، ج١ ،ص ١٦٥.

18 – Webster's Third , N ew international Dictionary , Copyright c by G &C . Merrlam co , 1976 , vol , II H to R ,S., original.

19- A ristotle : metaphysics , [983a – 983b] , In Walter Kaufmann ; philosophic classics , Thales to st . Thomas , Prentice – HALL , INC . U.SA , 4thed , 1963 .

20-Jonalhan Barnes : The Presocratic philosopher , Routledge&Kegan Paul , London , revised , ed , 1983 , P . 5 .

21 – Hans. Georg . Gadamer : Heidegger'sway's , Tr , JOHN W . Stanley , state university of New york press , U.S.A., P 143 .

٢٢. فريدريك نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي ، ص ٤١ – ٤٣ . .

٢٣ـ وولترستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص٢٧٥.

٢٤- دكتور جون ليويس : مدخل إلى الفلسفة اليونانية ، ترجمة أنور عبدالملك ، الدار المصرية للكتب ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

٢٥ ـ أفلاطون : الرسالة السابعة ، ترجمة عبدالغفار مكاوي ، دار الهلال ، مصر ١٩٨٧، ص ١٢٨

٢٦ـ برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، راجعه المرحوم الدكتور أحمد أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٧ ، ج٣ ، ص ٣٤٩.

٢٧ . المرجع السابق ، ص ٣٤٩.

٢٨ ــ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار القلم ، بيروت ، طبعة جديدة ، ص ٢١٠ .

٢٩ ــ برتراند رسل : حكمة الغرب ، ج[١] ، ص ١٦٥ . وأنظر كذلك اميل برهييه : تاريخ الفلسفة ، الجزء الثاني ، ص ٩٤ -- ٩٥.

٣٠ . برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج[٣] ، ص ٣٩١.

٣١ . برتراند رسل حكمة الغرب ، ج[١] ، ص١٦٧ .

٣٢ . برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج[٣] ، ص ٣٩١.

٣٣ ــ شارل فرنر : الفلسفة اليونانية ، ترجمة تيسير شيخ الأرض ، دار الأنوار ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص [٢٠٣].

٣٤ . د. أميرة حلمي مطر : الفلسفة عند اليونان ، ص ١٩٣.

35—E . Zeller : Outline of the History of Greek Philosophy ,Longmans , Green , And CO ,London ,1886 ,260 .

وانظر أيضا برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج[٣] ، ص ٣٩١.

٣٦ . شارل فرنر : الفلسفة اليونانية ، ص ٢٠٥.

٣٧ . المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

38 – Warner Rex : The Greek philosophers , the new American library m new york ,1958 , pp 23 ,24 .

39 – B.A .G . Fuller : A History of philosophy , Henry Holt and co ,Revised ,ed , New York , 1952 ,pp103,104.

٤٠ . شارل فرنر : الفلسفة اليونانية ، ص [٢٠٤-٢٠٦] .

٤١ ــ المرجع السابق ، ص ٢٠٦ . وانظر كذلك برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج[٣] ص ٣٩٢ .

٤٢ . برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج[٣] ، ص ٣٩٢.

43 –Plato : pheado , Tr ,Benjamin Jowett , the university of Chicago , 22nd ,ed , U .A .S , 1978 ,[57, 58]

٤٤ ــ برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج٣ ، ، ص ٤٠٠ . وأنظر كذلك اميل برهييه : تاريخ الفلسفة ، ج٢ ، ص ٤٣ . وانظر كذلك عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥ .

٤٥ . اميل برهييه : تاريخ الفلسفة ، ج٢ ، ص٤٤ .

٤٦ ــ المرجع السابق ، ص ٣٧ . وانظر كذلك برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج٣ ، ص ٤٠٠ . وأنظر كذلك د. عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ، ص ٨ .

٤٧ . برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج٣ ، ص ٤٠٠ .

٤٨ ــ برتراند رسل : حكمة الغرب ، ج١ ، ص ١٦٨ . وأنظر كذلك عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ، ص٣٥ -٣٦ .

٤٩ . اميل برهييه : تاريخ الفلسفة ، ج٢ ، ص ٤٥.

٥٠ . د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ، ص ٤٠٠ .

51 – Diogenes Laertius : Lives of Eminent philosophers ,Tr ,R . D . Hicks ,M .A , London ,Willam Heinemann ,II ,[9 –11] .

٥٢. أنظر، ص ٣ .

53 – E. Zeller: Outline of the History of Greek Philosophy , P. 241 .

٥٤ . د . أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ، ص ١٤٣ .

55- William Turner : History of philosophy ,Ginn and co , PRO , U.S.A ,1929 ,P 169.

٥٦. د . أميرة حلمي مطر: الفلسفه عند اليونان ، ص ٤١٣ .

٥٧. برتراندرسل : تاريخ الفلسفه الغربيه ، الجزء الثالث ، ص ٤٠٤.

٥٨. أميل برهييه : تاريخ الفلسفه ، ج٢ ، ص ٥٠ – ٥١ .

٥٩- د. عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ، ص ١٦٥ .